الليبرالية العربية الجديدة!

مفاهيم عصر راهن لا تلغيها الثيران الدموية الهائجة !

د. سيار الجميل

ما كنت اريد ان اتحدث عن قناة الجزيرة ولا انتقد برنامج الاتجاه المعاكس الذي يقدّمه الاخ فيصل القاسم لولا الهجمة غير المبررة التي شنّها في الحلقة الماضية ضد الليبراليين العرب الجدد.. وما كنت لانشر شيئا عن نشر غسيل غير نظيف ابدا تمارسه قناة الجزيرة ضد العراق ونخب العراقيين وضد غيرهم من الساسة والقادة والمفكرين وهم كثر وبوسائل اعلامية مثيرة ليس لها اي صلة بالواقع ولا بحقائق الامور لولا الهجمة غير المبررة التي طالت كل من له نزعة ليبرالية فكرية او سياسية مستحدثة..

والمشكلة ان هذه القناة الاعلامية المؤثرة ماضية في تشويه الحقائق السياسية والمفاهيم الفكرية العربية قبل غيرها .. ويستمع اليها العرب في كل مكان من دون ان تتأمل قليلا في مشروعها الديماغوجي ولا اقول تبدّله او تغيّره، بل لتصحح بعض ما تقوم به.. فمن الخطأ الشديد بقاء هذا التشويه الا اذا كانت القناة المذكورة تدرك متعمّدة ما تقوم به وما ترّوج عنه، ولها اجندة خاصة خفية متفّق عليها لاعتمادها في ضرب من تريد وتشويه ما تريد من دون طائل ولا نتيجة!

اين (الربّاط) بين الليبراليين الجدد وبين المحافظين الجدد؟

لم اكن اتخيّل ان يصل الامر الى ان يقرن الليبراليون العرب الجدد بالمحافظين الامريكيين الجدد ، اذ لا علاقة منطقية او جدلية بين الطرفين.. ابدا! ومن البديهي ان يعتمد كل الذين نعرفهم من الليبراليين العرب الجدد على مرجعيات فكرية وتاريخية تختلف اساسا عن تلك المرجعيات التي يعتمدها المحافظون الجدد في امريكا! ومن الخطأ الجسيم ان يوصم كل الليبراليين العرب الجدد بالاصولية والالغاء وقتل الاخرين وقمع الاصوات وكل التهم البليدة.. فهم على ما ازعم الوحيدون في فضاء هذا العالم العربي البائس من يعطيك حق الرد ويسمح لك بالمشاركة السياسية ان كان الذي يقابلهم مفكرين بررة وسياسيين مهرة لا ثيران هائجة في حلبة صراع فوضوي غير متكافىء ابدا.. الليبرالية يا عزيزي فيصل القاسم: مذهب سياسي قديم منتشر في كل ارجاء هذا العالم الرحب، ولا يمكن ان يحتكره بضعة كتاب عرب يحملون على كواهلهم هموم العرب ومآسيهم التي لم يشاركوا في صنعها ابدا، ربما اختلف مع بعضهم في ما يطرح ولكنهم كلهم ليسوا خونة ولا مرتزقة ولا منتفعين ولا عملاء ولا مأجورين .. والليبراليون العرب الجدد لا يجمعهم حزب ولا تنظيم ولا خنادق ولا اجندة سياسية معينة ولا علاقات خفية او علنية.. فثمة اختلافات فكرية وسياسية في ما بينهم، بل لا يعرف احدهم الاخر شخصيا الا ما ندر..

والليبراليون العرب الجدد لا يعرفون لغة الاقصاء كما تصفهم لأنهم لا يملكون سلطة ولا قوة ولا نفوذاً ولا اعلاماً متمرساً او متمرّساً .. سلاحهم الوحيد قواسمهم المشتركة في حريتهم وافكارهم وانفتاحهم وارائهم المتنوعة ومشروعاتهم التي من مقوماتها الاختلاف السياسي والحرية السياسية ومقارعة الحجة بالحجة والشجاعة في قول الحقيقة او مقاربة للحقيقة باعلان الواقع وفضح زيفه وعدم التستر على الجناة والطغاة والبغاة.. وعدم استخدام اية وسائل غير سياسية في بناء الحياة السياسية العربية، واذا كان الليبراليون لهم وسائلهم البراغماتية ورؤاهم الواضحة، فهم اناس واقعيون عمليون لا يؤمنون بالشعارات الواهية ولا بالطوباويات الخاوية.. اما ان كان بعضهم قد دان المقاومة هنا او هناك، فلا يمكن لأي عاقل له ذرة من الانسانية ان يؤيد قتل المدنيين ومباركة الارهابيين باسم المقاومين!

معنى الليبرالية اليوم

ولعل الليبرالية والليبراليين هم من ابعد الناس عن حمل ايديولوجية مغلقة او التمذهب في اصولية معينة.. وبالرغم من ان ثمة اخطاء قد تحصل عند البعض من الليبراليين العرب القدماء والجدد، فليس معنى ذلك ان هناك عطبا في المبادىء والقيم الليبرالية، بل لأن واقعنا العربي هو غير واقع امم اخرى لم يعد لها سبيل سياسي الا التعامل ليبراليا بعد سقوط كل الايديولوجيات العقيمة سواء دينية مذهبية متكلسة كانت كالتي توارثها العالم عن القرن الثامن عشر، او قومية فاشية كالتي شاعت وانتشرت وتوارثت في القرن التاسع عشر، او اشتراكية شيوعية منغلقة كالتي تسلطت وامتدت وتعاظمت في القرن العشرين. وبالرغم من معاداة كل الايديولوجيات للمبادىء الليبرالية، فان المنتصر الوحيد اليوم عند فاتحة القرن الواحد والعشرين هو الليبرالية في ارجاء هذا العالم.. وان كل التغيرات الجذرية التي حدثت في كل العالم منذ ١٥ سنة، أخذت تتعامل مع قضاياها ليبراليا بدءا بالبيروسترويكا والغلاسنوست الروسيتين وصولا الى متغيرات الصين الداخلية انتقالا الى انقلابات دول الكتلة الاشتراكية ودول امريكا اللاتينية ومستحدثات دول جنوب شرق آسيا.. فهل كل هذا العالم الليبرالي الجديد الذي ولد عند نهايات القرن العشرين من اجل بناء تقدم القرن الواحد والعشرين يقترن بالمحافظين الامريكيين الجدد؟؟

واذا كان كل من العالمين العربي والاسلامي يعيش ارهاصات تراجعية مخيفة سياسيا وفكريا واجتماعيا واقتصاديا تحت مظلات انقسامية مريعة واجندة عمياء بليدة، فهل سيكون الليبراليون العرب الجدد مسؤولون عن ذلك؟ هل هناك ثمة حاكم ليبرالي عربي واحد في تاريخ العرب الحديث والمعاصر قتل الناس وعذّبهم وسامهم سوء الحياة؟ هل صنع الليبراليون العرب القدامى ساسة ومفكرين لانفسهم عروشا وجعلوا اولادهم حكاما وطغاة؟؟ هل كان الليبراليون العرب القدامى خونة لاوطانهم واحزابهم وترابهم واهلهم حتى يكون الليبراليون العرب الجدد كذلك؟ من اتى بالاستقلالات الوطنية للبلاد العربية ابان النصف الاول من القرن العشرين وأسس الاحزاب الوطنية الرائدة وشرّع الانتخابات حتى ان كانت مزيّفة؟ ما الذي اتى به الانقلابيون والثوريون من العسكريتاريا العربية الذين نحروا الليبرالية العربية على مذبح شعاراتهم واهوائهم وتسلطهم وقراراتهم الصم؟ ما الذي اتى به الراديكاليون والمتسلطون من القوميين الفاشيين ومن الشيوعيين الفوضويين ومن الاسلاميين الاصوليين الذين ناصبوا الليبراليين العداء منذ مائة عام؟ لست من المدافعين عن تيار او حزب او تكتل او خنادق او اصوليات.. بل ادافع عن افكار ورؤى وتجارب وحريات.. ولسنا في منازلة مع بقية التيارات السياسية والفكرية على الساحة، فكل الليبراليين العرب الجدد كانوا قد تخّلوا من خلال قناعاتهم عن خنادق بالية وقد تحّولوا اليوم الى الليبرالية بعد تجارب فكرية وسياسية ونضالية مريرة، شيوعية وماركسية وراديكالية واشتراكية وقومية وبعثية ودينية وطائفية ومذهبية.. بعيدا عن التطرف وبعيدا عن الوصاية ومقاربة للحرية واتباع الوسائل الديمقراطية التي لا يريدها الاخرون من الفوضويين والفاشيين والاصوليين والمتسلطين..

دعوة مشكورة لا احققها

عندما ارسل لي الاخ فيصل القاسم بالاي ميل مقالته عن الليبراليين العرب قبل ٣ اسابيع وكلها شتائم وسباب بحقهم، اجبته على الاي ميل بكلمات جميلة وشكرته.. وقلت لنفسي: من المؤكد أن الرجل سيخصص حلقة من برنامجه عن الليبراليين العرب الجدد، وقد فعل.. وله الحق وكل الحق في ذلك اذا ما اخذ بنظر الاعتبار مسألة التكافؤ بين الضيفين ومسألة الحيادية في توزيع الاسئلة بين الضيفين ومسألة الامانة والموضوعية في التقييم.. فضيفه الاول شاكر النابلسي باحث ومفكر له تجاربه وابحاثه ويشهد الجميع بامكاناته ونزاهته وتاريخه النقي ولم يكن في يوم من الايام يستجدي الصدقات والارتزاق عند بوابات بغداد ايام صدام حسين!! اما ان يحدث العكس بحيث تنصب كل الاتهامات على ضيف واحد هو الاخ شاكر.. ويغدو الرجل وكأنه في سجن الباستيل يحاكم محاكمة الكوميونات الثورية ويمنع من ابداء رأيه بأن يقاطع حديثه دوما ومرارا وتكرارا.. ويترك الحبل على الغارب للضيف الاخر الذي لم يعرف كيف يضبط اعصابه وهيجانه وسيل اتهاماته وسبابه وشتائمه وبلغة ركيكة.. فهذا غير مقبول اخي فيصل ابدا! ولنا في التجارب التي قدّمها البرنامج منذ اكثر من اربع سنوات شواهد مؤلمة عن اخوة واصدقاء وزملاء كتاب ومفكرين عرب ضيفهم البرنامج وخرجوا منه وهم يحملون منه اسوأ الذكريات نظرا لما تعرضوا له من القدح وسيل الاتهامات ووصل الامر الى سباب وشتائم لا مكان لها من الاعراب!

ان من السهولة استعراض العضلات والتشدق بالعبارات الجديدة امام الجماهير التي ربما تجهل مغزى الليبرالية والراديكالية وبقية المفاهيم الاخرى التي ولدت في هذا العصر كما ولدت كل المستحدثات الاخرى، ولكن هناك تاريخ وهناك نخب وهناك اصحاب رأي وهناك سلطات وهناك مساحة من الحريات التي لم توفرها اي اتجاهات اخرى لا علاقة لها بالليبرالية في حياتنا نحن العرب على امتداد تاريخنا المعاصر.. وهنا نتساءل ونطالب الاخرين بالجواب: ما المصلحة السياسية والفكرية التي يمكن جنيها من التعرض الى الليبرالية والليبراليين العرب الجدد بهذه الوسيلة؟ اقول: ان هذا يذكرني بما كنت اسمعه من البعثيين في سنوات صدام حسين الاخيرة عندما جعل اعلامياته البائسة تشتم الديمقراطية والليبرالية من دون اي اسباب واضحة لأنه عدوها ليس لأنها قادمة من امريكا، بل لأنها التي ستغدو بديلا منه شاء ام ابى .. فكل الذين مهددة مصالحهم وقوتهم وسلطاتهم يجدون في امتداد التفكير الليبرالي وممارسته السياسية خطرا عليهم، وهم يرون أن العالم لم يعد في اغلب قسماته الا ليبراليا بشكل او بآخر!!

مقترح هل تقبلونه؟

ان من شاهد حلقة يوم ١٥ حزيران ٢٠٠٤ من برنامج الاتجاه المعاكس على شاشة (قناة الجزيرة)، وموضوعها المقارنة بين (الليبراليين العرب الجدد) في الحياة العربية اليوم و(المحافظين الامريكان الجدد) في الولايات المتحدة الأمريكية، يدرك ادراكا مباشرا أن (الليبراليين الجدد) قصد بهم تلك النخبة من الكتاب والمفكرين والساسة والمثقفين والمبدعين في موقع (إيلاف) الالكتروني، وأن الهمز واللمز بمن يحتويهم يشير الى (موقع إيلاف) بدلالة اتهام ضيف البرنامج الاخ الدكتور شاكر النابلسي بكتاباته والطعن به وبزملائه! وهنا اوجّه سؤالا واحدا الى الاخ فيصل ان يقبل منازلة من نرشحه ويقابله امام الملايين وفي الموضوع نفسه من دون ان يكون هناك تدخل من اي مدير حلقة.. هل يقبل ان يكون لوحده ازاء من نريد نحن ترشيحه بمنازلته من اجل ان نحقق الامانة والموضوعية.. ومن دون اي استفتاء لا يمت للواقعية باية صلة مع احترامنا رأي الجماهير قاطبة فهل تتقبلون ذلك؟ علما بأن هناك من يرفض رفضا قاطعا تلبية دعوة (الاتجاه المعاكس) وانا في مقدمتهم كما فعلت عندما اتصل بي الاخ شويري منظم البرنامج لأكثر من مرة بسبب الاسلوب المتبع الذي لا يخدم حياتنا العربية سياسيا او اعلاميا ابدا.. انني اقدر حرص الاخ فيصل على نجاح برنامجه ومهمته، ولكن اطالبه بأن يترك هامشا حقيقيا لحق الرد من دون اي محاكمات او اتهامات او تجاوزات او شتائم وسباب وكأننا في حلبة لصراع الثيران الهائجة. ومن ذا الذي يخسر في النهاية؟ ان الذي يخسر هو الثور الهائج الذي سيقع في نهاية المطاف ببركة دمائه!

واخيرا: ماذا اقول؟

لا اريد ان القن الاخرين دروسا في اساليبنا الاعلامية، ابدا فهم الاقدر على تقديم الدروس مني.. ولكن من حقنا ان نعبّر عن مثل هذا الذي يسود في حياتنا العربية ويؤثر بالضد على تفكير اجيالنا.. فاذا كنتم تؤمنون حقيقة بالرأي الاخر وبالحريات وبالشفافية (التي بدأت تتحدث بها حتى زمر المتخلفين والمتكلسين والديماغوجيين)، فلماذا تدينون غيركم ادانات لا معنى لها.. وهم لا سلطة ولا قوة بايديهم فليس هذا البعض من الكتاب الليبراليين العرب الجدد من صناع القرارات.. ولا من اصحاب المليارات ولا المؤسسات الاعلامية الضخمة، فاغلبهم من الموظفين والباحثين والاساتذة والمثقفين والمبدعين الاحرار.. ولم يكونوا في الحقيقة الا نتاج مرحلة تاريخية بائسة ونتاج عصر ادركوا متغيراته علينا وعلى كل الشعوب، فهم يعبرون عن افكارهم وامنياتهم وطموحاتهم في معالجة الاوضاع القائمة التي ما كانوا بمسؤولين عنها مسؤولية احزاب فاشية او حكام طغاة او مسؤولين بغاة او موقعي معاهدات او اعلاميين جناة..

ان كل الليبراليين العرب الجدد معروفون على الساحة وكلهم ليس لهم الا كلمتهم وسعيهم للعمل من اجل لقمة عيش شريفة على عكس من يأتي هائجا على سقوط طاغية جلاد كونه خسر ما كان يدفعه اليه النظام السابق وبعد ان خسر بغداد التي كانت محطة حقيقية لكل المرتزقة من كل الاصناف! وخسروا موائدها التي تقدم كل الاصناف! يأتي هائجا ليتهم هذا ويشتم ذاك وينال من سمعة اناس لا علاقة لهم بالموضوع.. انني اذ ادافع عن الحق من دون اسماء، احيّي كل التيارات والاتجاهات الفكرية والسياسية العربية الجديدة مهما كانت توجهاتها السياسية التي ستخدم مستقبلنا وتفكير اجيالنا القادمة وان تغدو لنا اساليبنا الليبرالية الجديدة في اعادة الاصلاح والبيروسترويكا والانفتاح والمكاشفات والشفافية واحترام الرأي الاخر وممارسة الديمقراطية باسمى صورها العربية.. فلا يمكننا التشدّق بها جميعا من دون ممارستها او تطبيقها! وليعلم الاخرون بأن لا مجال لمن لا يؤمن بمثل هذه الاساليب ان يجادل غيره باسمها! ومهما حاول الاخرون اعاقة السيرورة التاريخية، فان المستقبل سيكون لها مهما كانت التحديات الداخلية ضد حجم المتغيرات.. وهي الوحيدة الكفيلة بحل قضايانا الشائكة التي ورثناها من القرن العشرين.

طه حسين وشاكر النابلسي
في زورق الليبرالية أمام عواصف الدهماء

د. احسان الطرابلسي★

القنبلة التي فجّرها شاكر النابلسي يوم الثلاثاء ١٥/ ٦/ ٢٠٠٣ على شاشة قناة الجزيرة في برنامج (الاتجاه المعاكس) كانت قنبلة مدوية تناثرت شظاياها في كافة أنحاء العالم العربي بدليل هذا السيل الهائل من التعليقات عليها بين مؤيد ومعارض، ساخط وراض، ناقم ومرحب. لقد كان شاكر النابلسي في هذا اللقاء شجاعا شجاعة طه حسين في عام ١٩٢٦ عندما أصدر كتابه المدوي (في الأدب الجاهلي) الذي نسف فيه جملة من اليقينيات والثوابت وأحالها للنقد العلمي الموضوعي الدقيق، وذلك أول مرة في تاريخ الثقافة العربية المعاصرة. وقد قامت زوبعة ثقافية شديدة ضده من رجال الدين، ومن السلفيين المحنطين الذين كانوا يحكمون بحكم الأموات في القبور.

وفي ذاك الوقت، اتهم طه حسين بأنه يمثل الثقافة الغربية، والفرنسية على وجه الخصوص، وبأنه عميل للمخابرات الفرنسية، وبأن زوجته كانت صهيونية جاسوسة، وبأن طه حسين هو وليد الثقافة الغربية الفرنسية التي تسعى إلى تقويض الثقافة العربية، وبأنه ضد العروبة والثقافة العربية، وينادي بأن تنضم مصر إلى حضارة البحر الأبيض المتوسط لا إلى الحضارة العربية كما قال في كتابه (مستقبل الثقافة المصرية)، وأنه من المتهافتين على نظريات الغرب، وبأنه ملحد وكافر وخارج عن الملة. ومن رجال الدين من أجاز اهدار دمه، ولقد هوجم طه حسين منذ اليوم الأول إلى آخر يوم في حياته. ولم تتوقف الحركة الأصولية السلفية عن متابعته وكشف شبهاته ودحر مخططه، وجاءت هذه الردود الصاعقة على ألسنة أناس - لا يزال منهم أحياء - فضلا عن معاصريه أمثال الرافعي ومحمود شاكر وزكي مبارك وغيرهم. وتساءل الأصوليون: هل يمكن أن يكون طه حسين عميدا للأدب، وهو يزدري الأدب والأدباء، أو قائدا لثقافة أمة، وهو منكر لمفاهيمها، ولا يدين لها بالولاء، أو مفكرا لا يثبت أي شيء، ويثير من حوله الشكوك والسخريات والأحقاد ؟

وتساءل السلفيون قائلين: كيف يمكن أن يكون موضع القيادة وموضع الثقة من يقول : (إن الإنسان يستطيع أن يكون مؤمناً وكافراً في وقت واحد، مؤمناً بضميره وكافراً بعقله ؟ هذا مفهوم كنسيي غربي مسيحي يرفضه الإسلام وينفر منه).

وعندما هوجم طه حسين، كان الشارع العربي والمصري ضده بفضل سيطرة المؤسسات الدينية عليه، وبفضل مجموعة من المثقفين والكتاب السلفيين كالرافعي وزكي مبارك ومحمود شاكر وشيخ الأزهر أحمد خضر حسين الذي أصدر كتاب (نقض الاسلام وأصول الحكم) وصدّره بإهداء إلى (خزانة حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول ملك مصر الأعظم) ورجاه بأن: (يتفضل عليه بالقبول، والله يحرص على ملكه المجيد، ويثبت دولته على العز والتأييد). كذلك وقف حزب الوفد الليبرالي من طه حسين موقف المهاجم، واتهم سعد زغلول طه حسين بالجنون والغفلة أمام المطالبين برأس طه حسين. وكانت الجامعة هي الوحيدة التي وقفت إلى جانبه. وحدث كل هذا، في وقت كانت فيه مصر تعيش في مناخ ديمقراطي إلى حد كبير، وكانت فيها أحزاب وقوى سياسية ليبرالية.

شاكر النابلسي يقود الآن معركة فكرية وسياسية حداثية وليبرالية، دون مساندة من الشارع العربي أو الإعلام العربي المنافق والمضلل لهذا الشارع، ودون مساندة من الجامعة. والحملة المسعورة التي يتعرض لها شاكر النابلسي الآن ليست بسبب مواقفه الليبرالية المشرفة من قضايا الأمة في فلسطين والعراق ولكن نتيجة للكتب الجريئة التي اصدرها من قبل، ومنها كتابه (المال والهلال: الموانع والدوافع الاقتصادية لظهور الإسلام، ٢٠٠٢) والذي هو في ظننا وتقديرنا أشد خطورة من كتاب طه حسين (في الادب الجاهلي). ففي هذا الكتاب لم يهز النابلسي الثوابت التراثية المقدسة فقط كما فعل طه حسين، ولكنه اقتلع الكثير منها اقتلاعاً علمياً منهجياً. التاريخ يعيد نفسه الآن، ولكن بشكل أسوأ هذه المرة، وبأكثر جهلاً وتخلفاً وعمى في البصر والبصيرة.

فالهجمة الدينية السلفية التي تعرض لها طه حسين في العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين نتيجة لمواقفه الفكرية الحداثية والليبرالية الجريئة التي كانت تتلخص في أن التاريخ الغربي هو نموذج للتاريخ البشري، ويجب على البشر كلهم أن يحذو ويكرروه، وهذا أمر اختياري لمن يريد التقدم (نظرية طه حسين الشهيرة)، هي الهجمة نفسها التي يتعرض لها شاكر النابلسي من قبل السلفيين القوميين والدينيين نتيجة لهذه المواقف. والاتهامات التي اتهم بها طه حسين من أنه صهيوني وعميل للغرب ومسوّق لأفكار المستشرقين الغربيين والاستعمار الغربي.. الخ. هي التهم نفسها التي يرمي بها السلفيون الدينيون والقوميون شاكر النابلسي الآن من أمثال رشاد أبو شاور وخليل السواحري وفاروق الوادي وعدلي صادق وغيرهم من السلفيين القوميين والدينيين.

فرشاد أبو شاور الكاتب الفلسطيني، على شاشة قناة (الجزيرة) التي يتحكم بها من جانب الإخوان المسلمين ومن جانب آخر مجموعة من البعثيين، يعلن بأن النابلسي وأمثاله من الليبراليين الجدد هم عملاء الغرب، وهي التهمة نفسها التي سبق واتهم بها طه حسين من قبل خصومه.

وفاروق الوادي الكاتب الفلسطيني، يشبه النابلسي بأنه (افكاتو) الشيطان، وبأنه محامي ديمقراطيّة السلاسل والاغتصاب، (القدس العربي ، ٤/٦ / ٢٠٠٤)

وخليل السواحري الكاتب الفلسطيني، يصف النابلسي بمن باع نفسه للشيطان ويقول: (رجل العقود الاخيرة من القرن الماضي لم يعد هو رجل العقدين الاخيرين، بعد ان ترك عمله في المهجر السعودي وسافر إلى المهجر الامريكي حيث تباع الذمم وتشترى في سوق المزاد الاعلامي) (الدستور الأردنية، ١٧/ ٦/ ٢٠٠٤).

وعدلي صادق الكاتب الفلسطيني، يصف شاكر النابلسي بأنه (الخبير الأمريكي، الذي يقرأ من على الورق، عبر شاشات الفضائيات، زاعقاً، في تحميل المسؤولية عن تردي الأوضاع الدولية، وعن تفاقم أزمة التسوية، للسلطة الفلسطينية ورئيسها!) (القدس العربي ٢٢/ ٣/ ٢٠٠٤).

وسعادة خليل الكاتب الفلسطيني، يصف الليبراليين الجدد ومنهم شاكر النابلسي بأنهم حاقدون وموتورون وهلاميون، وعفريتهم اسمه العروبة والوحدة العربية والقومية العربية (إيلاف ٢٠/ ٦/ ٢٠٠٤).

وهؤلاء جميعاً من (أزلام) ياسر عرفات، ومن آكلي خبزه، وشاربي مرقه.

وهناك عشرات الكتاب في مواقع الانترنت يهاجمون شاكر النابلسي ويرمونه بأقذع السباب والشتائم ويرمونه بالعمالة والصهيونية والخيانة.. الخ.

فلماذا ما زال العقل العربي حتى الآن مفتقداً عند معظم الانتجلنسيا؟

ولماذا ما زالت طبقة المثقفين الرثة حبيسة شعارات بادت وخطابات ماتت، ولم تعد تصرف الآن في أي بنك من بنوك السياسة العالمية. انها (شيكات) سياسية بدون أرصدة، كما قال شاكر النابلسي بالأمس على شاشة قناة الجزيرة؟

إن الجواب على هذين السؤالين يكمن في أزمات عدة ما زالت تفترس العقل العربي. منها أزمة التعليم وسيطرة التعليم الديني الظلامي، وكبت حرية التفكير والرأي الآخر، وسيطرة المجتمع العسكري العربي والمجتمع القبلي، وتفشي الفساد، وصعود الديكتاتوريات العربية الوراثية.

إن نظرة سريعة الى المشهد العربي العام هذه الأيام، يجعلنا نترحم على المجتمع العربي في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، حين كان الانسان يكفر بالله جهاراً نهاراً، فلا يُقتل كفرج فودة وحسين مروة ومحمود طه ومهدي عامل وغيرهم، ولا يحاولون نحره كما فعلوا مع نجيب محفوظ وكما فعلوا مؤخراً مع الكاتبة السعودية جهير عبد الله المساعد، ولا يُطرد من الأرض كنصر حامد أبو زيد، وانما يتم نقاشه فيما كفر، ولماذا كفر، وبالتي هي أحسن، كما تم ذلك مع اسماعيل أدهم (١٩١١-١٩٤٠) عالم الرياضيات المصري الذي نشر عام ١٩٣٦ رسالة بعنوان: (لماذا أنا ملحد؟) فلم يُقتل ولم يُطرد من الأرض، وانما تم الاكتفاء بحواره ومجادلته بالتي هي أحسن، وبالرد عليه من قبل أحمد زكي أبو شادي برسالة بعنوان: (لماذا أنا مؤمن؟) ، وبمقالة من محمد فريد وجدي بعنوان: (لماذا هو ملحد؟) وانتهى الأمر عند هذا الحد.

ولو كان شاكر النابلسي يعيش في بلاد العرب وليس في الغرب للقيّ نفس مصير فرج فودة أو حسين مروة أو محمود طه، أو في الأقل لحاولوا نحره كما فعلوا مع نجيب محفوظ وجهير المساعد أخيراً.

فأين نحن اليوم من أمسنا المتسامح؟!

★ كاتب لبناني مقيم في كاليفورنيا.